العنف هوية أم سمة حالة عمرانية

د. المولدي اليوسفي

(استاذ مساعد، علم اجتماع المعهد العالي للعلوم الانسانية تونس)

مقدمة :

تبحث هذه الورقة في العلاقة بين العنف و الهوية ضمن قراءة اجتماعية لظاهرة العنف التي لم يخل منها الوجود البشري. إلا أنها تعرف ككل الظواهر الاجتماعية أطوار انخفاض و أطوار تصاعد و إننا نلاحظ لها في السنين الأخيرة تصاعدا محيرا ستكون نتائجه مضنية للإنسانية. و من بين الأطروحات الأكثر رواجا حاليا في خضم هذا الجدل تلك التي تتهم الهوية و خطابها بأنها لا محالة منتجة للعنف إن لم تكن هي العنف ذاته. و بقطع النظر عن السياقات التي حفت بنشأة هذه الأطروحة فإننا نجد أنفسنا أمام السؤال التالي: أي علاقة بين العنف و الهوية ؟

و للإجابة على هذا السؤال ننطلق من تعريف طرفي السؤال، أي العنف و الهوية.

II/ العنف :

من معاني اللفظ و تعريفات المصطلح:

لغة: العنف في اللسان العربي هو " الخُرق بالأمر و قلة الرفق به، وهو ضد الرفق " و فيه أيضا معنى الجهل بالشيء "اعتنفت الأمر اعتنافا جَهِلته"[1]

و يعرف التحالف المعني بالوقاية من العنف[2] العنف على أنه "الاستخدام المتعمد للقوة البدنية الفعلية، أو التهديد باستخدامها ضد الذات، أو ضد شخص آخر، أو ضد مجموعة من الأشخاص، أو المجتمع ككل مما يسفر عن أو قد يؤدي بشكل كبير إلى وقوع إصابات، أو وفيات، أو ضرر سيكولوجي، أو سوء نماء، أو حرمان"[3]

في حين عرفت الاتفاقية العربية لمكافحة الإرهاب الصادرة بقرار من مجلسي وزراء العدل والداخلية العرب في اجتماعهما المشترك الذي عقد بمقر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بتاريخ 1998/4/22 الإرهاب كما يلي :"كل فعل من أفعال العنف أو التهديد به أيا كانت بواعثه[4] أو أغراضه، يقع تنفيذا لمشروع إجرامي فردي أو جماعي، يهدف

إلى إلقاء الرعب بين الناس، أو ترويعهم بإيذائهم أو تعريض حياتهم أو حريتهم أو أمنهم للخطر، أو إلحاق الضرر بالبيئة أو بأحد المرافق أو الأملاك العامة أو الخاصة، أو احتلالها أو الاستيلاء عليها، أو تعريض أحد الموارد الوطنية للخطر."

و يصنف التقرير الخاص بالصحة والعنف في العالم[5] العنف على النحو التالي:

1- العنف ضد الذات: و ذلك عندما يكون الجاني هو الضحية.

2- العنف بين الأشخاص: و هو العنف المتبادل بين الأشخاص.

3- العنف الجماعي وهو العنف الذي تمارسه مجموعات و يسميه التقرير العنف الاجتماعي.

أما اجتماعيا فالعنف سلوك بشري يقصد به إيذاء الآخر جسميا باستعمال القوة أو نفسيا كالضرر الناجم عن إهانة و عموما العنف سلوك يقصد به تعمد المس بالآخر جسميا أو معنويا، فالضرر الناجم عن سخرية من شخص أو عن استعمال القوة ضده، يعتبران سلوكين عنيفين و إن اختُلِف في تقدير حجم الضرر الناتج عنهما.

وفي السلوك العنيف معتد وضحية دوما، من هنا يكون تقييم ما ينتج عن ممارسة العنف من تقييم الضحية حسب الحالة و المكانة الاجتماعية. و هو ما يجعل الأمر ذاتيا جدا. و يكون للذاتي السبق على الموضوعي و هذا ما يؤدي للاختلافات الكبرى بخصوص تقييم بعض الممارسات التي يعتبرها الضحية عنفا و يجد لها الفاعل أكثر من تبرير و للثقافي فيها دور كبير. فالمعلم الذي يضرب التلميذ، مثلا، يعتبر أنه يؤدبه أو يدفعه لبذل مزيد من الجهد حتى يستوعب المعرفة و بذلك يجعل ما يقوم به عملا إيجابيا و هومن صلب مصلحة التلميذ و المبرر الثقافي الذي يضفي "مشروعية" على فعله ما يتداوله الحس المشترك "عصا المؤدب من الجنة". كما تبرر الدولة عنف أجهزتها الأمنية بأنه لا يتعدى العمل على فرض القانون و رفض الفوضى و مرة أخرى نجد المبرر ما يروجه المأثور "60 سنة مع سلطان جائر خير من ليلة واحدة بدون سلطان" أما الضحية فإنه يعمد إلى عكس ذلك تماما حين يعتبر العنف في كل الحالات شكل من أشكالا العدوانية.

فالعنف تتعدد تعريفاته و أشكاله لتتوزع على العنف الجسمي والعنف المعنوي و العنف اللفظي. أما دوافعه فهي بدورها متنوعة إذ نجد ما هو غريزي في الإنسان و هو من نزعته العدوانية و العنف الناجم عن سياقات و وضعيات تحف به فتجعل منه ردة فعل كما هو حال العنف الناتج عن حالات نفسية أو تفريغ أحاسيس كما يمكن للعنف أن يكون مبرمجا وفق استراتجيات فردية أو جماعية تهدف إلى إدراك غايات معينة.

من المهم التمييز بين العدوانية و العنف، إذ أن العدوانية هي ميزة غير مقتصرة في الشخصية، و المسماة بـ "الغريزة" كما ذكرنا سابقا والتي تظهر في بعض الأحيان ونطلق عليها "سلوكا عنيفا", أي أن العدوانية هي إحساس لا يكون ضرورة عنيفا و بالمقابل فان العنف هو سلوك يشتمل دائما على العدوانية.

III/ الهوية:

يرى فراج قتلوب (Gottlob)* أن الهوية لا تعرف لأن كل تعريف هوية"[6] و لكن يمكن أن نقول، دون التخبط في متاهة الفلسفة و المنطق الرياضي، أن الهوية هي ما يعرف به الشيء ذاتا كان أو فعلا أي ما يشخصه كما جاء في كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي حيث يقول " الهوية بضم الهاء و الياء النسبة هي عبارة عن التشخيص و هو المشهور بين الحكماء و المتكلمين و قد تطلق على الوجود الخارجي و قد تطلق على الماهية مع التشخيص" و يُعَرفُ الجرجاني الهُوِيةَ بأنها : "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق إشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[7]

فالهوية للإنسان تشخيص يعرف به الفرد نفسه بالنسبة للآخر و الذي يعرفه بدوره من خلال نفس التشخيص فهي عبارة عن صورة نمطية تنسج من الرموز الثقافية و السمات الأساسية النفسية و الاجتماعية التي تبين انتماءه لمجتمع بشري ما. فكل قومٍ منسجمون متشابهون، تجمعهم هذه الخصائص و السمات الأساسية النفسية و الاجتماعية و تميزهم عن الآخرين الذين لهم أيضا خصائصِ و سمات أساسية نفسية و اجتماعية خاصة بهم و تميزهم عادة عن الآخر. و تشتغل هذه الخصائص في شكل وحدة مشاعر داخلية لكنها تمتد في شكل شبكة وعي شاملة كل أفراد المجتمع و لا يفهمن من هذا أنها تجمع بمفهوم الجمع الإضافي (واحد + واحد) و إنما المقصود هو الجمع الكلي الذي يتركب من الكل ككل مركب تكون قيمة الفرد من حيث هو سلوك و شخصية تتماهى في سماتها مع المجموعة المنتمية لها و هي مجموعة تمثلات سلوكية و ذهنية لا يتحقق وجودها إلا بها في نفس الوقت و لا قيمة للفرد إلا كسلوك ونمط عيش و تفكير يتماثل مع الكل.

كما تجسد هذه الخصائص و السمات الأساسية النفسية و الاجتماعية وحدة عناصر مادية تحقق التمايز مع الآخر و سلوكات تحقق التكامل و الاستمرارية في التماهي. وهكذا تكون الهوية وحدة مادية ونفسية تجعل الفرد يتماهى مع مجتمعه و يتميز عمن سواه فالهوية هي انتماء يمنح الفرد مشاعر الأمن والاستقرار بتجسده في الآخر الذي يقاسمه وجوده و مصيره و يواجه معه تحديات و مصاعب الحياة.

إن دراسة الهوية في علوم الإنسان جد معقدة و ذلك لما تحويه من عناصر متداخلة و عصية على التحليل و هي تلك

المكونات غير الظاهرة ذلك أن بعض السمات النفسية أو الاجتماعية قد تتوارى خلف محدث ما يظلل عليها و قد يؤدي إلى وأدها نهائيا أو إلى تراجع آدائها مرحليا و هذا منوط بقدرتها على الصمود و قدرة المحدث على الاستمرار. و لنا في ثقافة البلدان الإسلامية أحسن دليل فالمنطقة العربية لم تعرب في أغلبها إلا بفعل الإسلام الذي لم يعرب مناطق إسلامية أخرى مثل باكستان و إيران. و نلاحظ الشيء نفسه مع تأثير الثقافة الاستعمارية في إفريقيا حيث نجد مناطق حافظت على لغتها و لباسها و أخرى تبنت لغة و لباس مغتصبيها.

لا يمكن الحديث عن الثابت و المتحول عند مقاربة الهوية كما لا يمكن الحديث ايضا عن أساسي و ثانوي أو عنصر تقدم و عنصر انكفاء على الذات، أو عن مقيد و ديناميكي و متكلس[8] لأن عناصر الهوية كل مركب لا يمكن الفصل بينها إلا في التحليل الأكاديمي أما في الواقع يؤكد اجتماعيته أي انتماءه للاجتماعي الذي كلما ظن الباحث المختص أنه تمكن منه انفصم و تملص هذا الاخير وهذه مسألة متعلقة بعلمية علم الاجتماع و تنطبق على كل ما يدرس من مواضيع. فالظاهرة التي تبدو واضحة تتحول إلى معقدة كلما أراد الباحث الاجتماعي إخضاعها للبحث العلمي. و معلوم أن عقلنة الاجتماعي تبقى قضية محيرة و تجعل المختص في علم الاجتماع حائرا متوترا على الدوام.

و اعتقد أن الاناسة هي المقاربة الأكثر اقتدارا على تحليل ما أنا بصدده إذ هي دراسة أشمل للإنسان. فهذه المقاربة تبين أن الهوية محددة لانتماء الفرد لمجموعة ضيقة أولا و هي أسرته ثم يكتشف بعد ذلك أن مجال انتمائه أشمل. بل قد يقال أن الموروث الثقافي هو محور الهوية كـ" أنا واعية" و محدد انتماء لمجموعة لا احد في الحقيقة اختارها. و لكن قد يفقد هذا القول أهميته عندما نتحدث عن الهوية كوعي موسوم بجملة من الرموز الثقافية التي من خلالها يُعرف الإنسان عند الآخر و يعي ذاته و تُحدد سلوكه مع التأكيد على أن هذا الوعي يتم في مستويات ثلاث تتدرج حسب مراحل عمر الفرد و تجربته في الحياة. و يتضح من خلال ما ذكر أن الهوية تعمل داخل الفرد إذ هي في علاقة مع وعيه بذاته إلا أنها، في الحقيقة، خارجة عنه لأنه يتلقى مكوناتها من المحيط لتكون عنده صورته النمطية من خلال علاقته مع الأخر فأول عُنصري هويته و هما اسمه و جنسه يأتيانه من هذا الخارج و لكن فعل الهوية في الفرد عمل ياتيه عن وعي منه. قد يعترض على هذا القول بـ"كيف يعتبر فعل يبدو ظاهريا خارجا عن الإنسان من فعله؟ إذ ربما فهم من قولنا أن الهوية تفعل في الإنسان اتسام هذا الأخير بالسلبية و هذا ما يتنافى مع اعتبار العمل من عنده و لكن بالعودة لمفهوم الوعي بالهوية على أنه حلول في الفرد، بالمفهوم الصوفي، يتضح المعنى و ينتفي البعد بينهما و يصبح عمل الهوية هو عمل الفرد. فعندما تنادى الأم مثلا ابنها باسمه يستجيب دون تفكير لكن ليس دون وعي لأن اسمه كرمز يدفعه للاستجابة و بوعي منه.

فالهوية في عوارضها الذاتية جملة رموز تجمع مجموعة بشرية أما في ما يعرض لها في أحوالها فإن ذلك منوط بما تكون عليه الحالة العمرانية. يقول جيرولد بوست[9]، " أدلى عالم الإرهاب الشهير آريل ميراري بملاحظة هامة في خريف العام 2004، مشيرا إلى أن الإرهاب الانتحاري "طبيعي" جدا. فقد أشار إلى أنه فيما كان يسير في ساحة هارفارد (بولاية مساشوسيتس)، استوقفته فكرة أن المراهقين هم مراهقون لا يختلفون عن بعضهم بعضاً في جميع أنحاء العالم. وحين سألته عما يعنيه بذلك قال لي: عندما دخلت محلا للبيتزا في كامبريدج كان المراهقون يدردشون عن فريق [كرة القدم] المفضل لديهم، وهو فريق "باتريوتز" في نيو إنغلاند (كان ذلك خلال مباريات التصفية لبطولة السوبربول)، عن أبطالهم في الفريق كرامي الكرة توم برادي، وكيف أنهم يرغبون في أن يكونوا ذات يوم حين يكبرون نجوما في كرة القدم كأبطالهم. و يحدث الشيء نفسه في مخيمات اللاجئين في الأراضي المحتلة ؛ ولكن فريقهم المفضل هو حماس وأبطالهم هم الشهداء، وهم يرغبون في أن يكونوا ذات يوم حين يكبرون شهداء مثل أبطالهم. كان الشيء طبيعيا إلى درجة مرعبة". فالحالة العمرانية هي التي تفرض الاهتمامات و المهيمن منها تكون له الأولوية فالشاب في كامريدج و بفعل عدة عوامل اجتماعية و ثقافية كان أول اهتماماته فريق كرة القدم و الشاب الفلسطيني تفرض عليه حالته العمرانية و أهم مميزاتها الرزوح تحت نير استعمار عنصري تفنن في إذلاله تكون المقاومة هي العنصر المهيمن و بذلك يكون الأبطال عنده تلك المجموعة التي تهب أرواحها بسرور على أمل أن يعيش من بقي وراءهم أقل تعاسة مما هم شاهدوه.

III/ 1- أصل الهوية ؟

مما لا جدال فيه أن الهوية مكتسب ثقافي لا معطى طبيعيا و ربما يجرنا هذا للتذكير بالفرق الطفيف بين الماهية و الهوية فالأولى معطى كقولك " إنسان" و الثانية متصلة بالثقافة كقولك " عربي" أو " أمريكي" لذلك هي مكتسبة بالموروث و ربما كانت مكتسبة بـ"تحول الولاء" أو بالانثقاف[10].

يكتسب الإنسان هويته أولا أثناء تنشئته حيث يعي انتماءه الأول لعائلته ثم للمجال الثاني في حياته (الحي أو القبيلة) نتيجة ما يعيه مع فعل أعوان التنشئة فيه و هم خاصة مؤسسات التنشئة (الأسرة، مجموعة الأتراب، المدرسة،....) ويمر الناشئ بمرحلتين الأولى يكون فيها سلبيا و هي مرحلة تتسم بعلوية المجتمع على الفرد الذي يمارس عليه سلطته عموما أما الفترة الثانية فهي تلك التي تبدأ مع الشعور بالذات عندما يصبح الفرد يفكر بالأنا و تتسم بالتعلم و الوعي. و هذه مسألة أقرب ما تكون من اهتمامات الأنتروبولوجيا الثقافية و ملخصها إقرار أن الثقافة تصبغ شخصية الإنسان الذي بدوره يؤثر فيها.[11]

في مختلف هذه المراحل يكون الناشئ باحثا عن مكانه أي عن انتمائه الذي يتحقق بالتماثل مع نماذج تقدمها المجموعة التي ينتمي لها و هي تتدرج كما بيناه سابقا في مساحات فعل الهوية. و هنا يتبين المفهوم الجماعي للهوية عندما تصبح الشخصية الأساس بالمفهوم الذي حدده لها ابرام كاردينر أي مجموع السمات النفسية و الاجتماعية الثابتة والمشتركة بين أفراد المجتمع و المستبطنة أثناء التنشئة بدور مؤسساتها و تحقيق الانتماء لمختلف الأنسقة الاجتماعية حيث تتم عملية التكيف الاجتماعي. و هو ما يجعل الفرد يعي هويته بمفهومها الجماعي. و هي بهذا المعنى تفيد تقريبا ما يعنيه مفهوم l'habitus بالمعنى الذي حدده بيار بورديو[12]

III/ 2- سر الهوية كمحفز للفعل:

لأن الإنسان كائن ذو عقل، كما يقول ابن خلدون، فإن وجوده يختلف عن وجود الكائنات الأخرى و إن اشترك معها في الجانب الطبيعي من الوجود الذي يقف عنده وجودها في حين أن الإنسان يكون واعيا بوجوده باعتباره ذاتا واعية ذلك أنه واع بوجوده من أجل ذاته، أي أن الذات أو الهوية تصبح سبب وجود و هذا يجعل وجود الإنسان مختلفا عن وجود الحيوان فهو لا تحركه غرائزه فقط و إنما تحركه خاصة وعيه بوجوده كإنسان له هوية. فالطفل في مجموعة اللعب يتحرك مدفوعا بمكانته في المجموعة لا برغباته في اللعب فقط فهذه الرغبة يمكن أن تجدول في خانة الغرائز، أي ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوان، و لكن ما يكون مدفوعا إليه باستحضاره لمكانته في المجموعة يكون ناتجا عن وعي و تفكير وتدبر و هذا ما يوضع في خانة الفعل العقلي أو المعقلن أي الناتج عن تدبر و استعمال العقل.

فالهوية، إذا، في عوارضها الذاتية ما يعرف به الفرد أو الشيء في مقابل الآخر، أو جملة رموز تجمع مجموعة بشرية أما في ما يعرض لها في أحوالها فإنها تنشط في حالة مواجهة آخر ذي رموز مختلفة و في حالة اشتداد المواجهة و تحول الاختلاف إلى خلاف يتحول الوعي بالانتماء إلى تمحور حول تلك الرموز إلى درجة الحلول بالمفهوم الصوفي فيصبح المستبطن موجها للفرد و طاقة للفعل و يخضع له الفرد خضوع المملوك لمالكه دون أي مجهود نقدي و يشتغل العقل طائعا لها و بذلك تتحول طاقته الإبداعية إلى "طاقة إبداع الخاضع" فينحسر إبداعه في منشط الاستجابة للهوية.

III/ 3 الهوية فاعل اجتماعي:

لا نروم، في هذا السياق، عقلنة الهوية و إنما نسعى لتبيان قدرتها على توجيه فعل الإنسان وهذا يحيلنا منهجيا على محاولة التمكن من كشف آليات هذا الفعل. و تختلف فاعلية هذه الرموز في المساحة و المدى و القوة تبعا للأحوال و الحديث عن فعل الهوية يتطلب أولا تحديد كيفية عملها و مساحاته.

1/ كيفية فعلها :

نقسم فعل الهوية في الإنسان إلى نمطي الفعل : التلقائي و الانفعالي.

الفعل التلقائي:

انطلاقا من مقولة ابن خلدون "إن كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته و فيما يعرض له من أحواله"[13] يكون فعل الهوية خاضعا لطبائع العمران أي لمحيطها الثقافي و أحواله و ما يعرض فيها من الحوادث فتنشط وتتراخى رموزها و تذهب أو تتوارى و كل ذلك حسب الأحوال في بعديها التاريخي و الآني. و للتراث في هذا دور كبير باعتباره مكونا أساسيا للاشعور الجماعي بالمعني الذي حدده له يونغ C.G JUNG.[14] إذ تعدى حدود اللاوعي الفردي الذي ركز عليه أستاذه سيجموند فرويد إلى لاوعي جمعي داخل كل فرد وهو مخزون أثرى وأعمق من مخزون الخبرة الشخصية المكبوتة و التي تمثل اللاوعى الفردي كما حدده فرويد، و يحتوي اللاوعى الجمعي الخبرة الناتجة تراكما عبر تجربة الوجود الجماعي بكل ما حدث فيها على مستوى مختلف الأنسقة الاجتماعية. فانتماء الفرد للمجتمع يتمثل في ما يتجسد في سلوكه و مظهر حياته من ثقافة ذلك المجتمع. أو لنقل في خضوعه لثقافة المجتمع فمع نشوئه يتبنى الفرد لا شعوريا ثقافة المجتمع الذي ينشأ فيه و بذلك يكون التراث موجها لاشعوريا لفعل الإنسان. هكذا يكون التراث في نهاية التحليل هو المخزون في اللاوعي الجمعي و بذلك يصبح له تأثير الموجه لسلوك الفرد. و منذ الثلاثينات من القرن الماضي، مع عالم الاجتماع الأمريكي "جورج ميد" بين أهل الاختصاص أن الوعي بالذات معطى اجتماعيا إذ عندما يعرف الفرد ذاته (هويته) بالتناغم مع الآخرين و تبني وجهات نظرهم وسلوكهم.

في هذه الحالة يكون الفرق بين الفرد و المجتمع فرقا بين الميكرو و الماكرو سسيولوجي أي أن فعل الهوية في الفرد يعاد إنتاجه في الجماعة مع اختلاف أن القدرة على الفعل تصبح أكبر باتحاد القوى و لو كمعامل نفساني فمحب فريق كرة قدم مثلا لا يتحول إلى عنيف و لا يعبر عن تعلقه بفريقه و استعداده للموت من أجله إلا عندما يكون في مجموعة من أحباء الفريق. كما أن الشعارات الأيديولوجية و حتى الوطنية لا ترفع إلا في التجمعات. لأن التجمع كمعامل وجداني يضاعف روح الاندفاع و الحماسة لذلك يسعى الزعماء دائما لإلقاء الخطب في التجمعات الجماهرية. فالهوية الجماعية تكون أكبر قوة و بالتالي أكبر فاعلية فالجمع إن حصل له الالتقاء حول شيء و اعصوصب عليه تحول إلى قوة و لا يكون ذلك إلا بالشعور بالهوية الجامعة التي تخلق من المجموعة جسما واحدا و من التجمعات الأصغر و الأفراد خلاياه. لو نجحت الأحزاب الشيوعية في تحويل الانتماء الطبقي إلى هوية لدى عامة العمال لحققت المشروع الماركسي النموذجي. لكن ذلك لم يحدث تاريخيا لطغيان شعور أكبر و هو الانتماء الذي تجسد عبر التاريخ و المتجذر في اللاوعي الجماعي السالف الذكر و هو الجانب الروحي مما يسميه ابن خلدون طبائع العمران و هو مشترك بين مكونات النسيج الاجتماعي في كليته و

يحقق هيمنة الوعي الجماعي على الوعي الفردي و هذا ما يفسر تظليل الهوية الجماعية على الهوية الفردية أو هوية المجموعات الضيقة.

الفعل الانفعالي:

الشعور بالانتماء أي بالهوية ينشط في حالة مواجهة أو شعور بالامتهان أو الاستنقاص من الآخر و عندها يشتد و يكبر التحدي و يتجسد ذلك في عمل القيادة المعترف كممثل و رمز للهوية و في حال عدم تصديها لما اعتبر مهانة للمجموعة تفقد شرعية و جودها و تصبح الشرعية لمن يدافع عن الهوية الجماعية والتي تتحول إلى فاعل تاريخي محدد لما يحدث في الواقع. و يعج الواقع المشاهد كما التاريخي بالأمثلة التي تجسد هذا الطرح ففي الشرق العربي يحدثنا المعري على التعايش المسيحي الإسلامي في منطقة الشام في قوله : " هذا بناقوس يدق و ذاك بمئذنة يصيح ليت شعري أيهما الصحيح" و قد تواصل هذا التعايش و أعطى بعض المسيحيين جهدا يشكر في خدمة التراث الإسلامي. و لكن عند تدخل قوى من مصلحتها تفجير ذلك التعايش تقاتل المسيحيون و المسلمون سنين طويلة. و عاشت البوسنة و الهرسك نفس التجربة و بتدخل من نفس العناصر الخارجية و في الحالتين كان القتل على الهوية.

و تمثل الحالة النازية في ألمانيا مثالا آخر في توظيف الهوية الجماعية و الوعي الجماعي فرغم قوة الطبقة العمالية وهي القوة الكلاسيكية للثورة الشيوعية و رغم وجود حزب شيوعي هو، آنذاك، من أقوى الأحزاب الشيوعية في أوروبا اشتغلت أجهزة الدعاية النازية على اللاوعي الجماعي واستخرجت من مخزونه أسطورة علوية الجنس الآري(ARYEN)[15] و وظفها الخطاب النازي ليجعل الألمان مستعدين للتضحية من أجل تحقيق علوية هذا الجنس. و استغل من الوعي الجماعي الشعور بالمهانة من نتائج الحرب الأوروبية الأولى (1918/1914) و بذلك بهتت هوية الطبقة و سطعت هوية القومية لأن الطبقة جزء و القومية كل و طبيعي أن يطغى الكل على الجزء[16].

تنشط، إذا، الهوية و تتحول إلى فاعل عند تنشيط عناصر في اللاوعي و يكون ذلك عادة عند الاصطدام بالآخر أي في حالة مواجهة آخر ذي رموز مختلفة و في حالة اشتداد المواجهة و تحول الاختلاف إلى خلاف يتحول الوعي بالانتماء إلى تمحور حول تلك الرموز إلى درجة الحلول بالمفهوم الصوفي فيصبح المستبطن موجها للفرد و طاقة للفعل و يخضع له الفرد خضوع المملوك لمالكه دون أي مجهود نقدي و يشتغل العقل طائعا لها و بذلك تتحول طاقته الإبداعية إلى "طاقة إبداع الخاضع " فينحصر إبداعه في منشط الاستجابة للهوية. تنشط رموز الهوية الجماعية متحولة إلى خزان طاقة تشعل بها حركية تاريخية الهدف منها تحويل الحالة البخسة إلى حالة نافقة. و هذا ما نلاحظه بكل وضوح في تسميات الأجنحة العسكرية للمقاومة الفلسطينية فكتائب القسام، مثلا، توظيف لرمز عز الدين القسام الشيخ (الجانب

الديني) المقاوم (الجانب الوطني الاجتماعي)، شهداء الأقصى توظيف للرمز الديني و التراثي للمسجد الأقصى الذي كلما ذكره ياسر عرفات أضاف "الشريف، أولى القبلتين، و ثالث الحرمين و مسرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم".

عندما يتأزم الحاضر يكون الاستنجاد بالماضي كأحد أبواب محاولة الخروج من الأزمة فينشط التراث و يحضر الماضي و يقع الانشغال بالتاريخ بحثا عن أمجاد تظلل على واقع بخس في مرحلة أولى ثم و هو الأهم تحويل ذلك المحزون التراثي إلى خزان طاقة للعمل على تثوير الحاضر و تجنيد المجتمع الخروج من وضعية الدون. و يتجسد هذا اليوم في أسماء مختلف تنظيمات المقاومة العراقية حيث تتردد أسماء من التراث ذكرت في التاريخ كقيادات قتالية.

III/ 4- في التعامل مع التراث :

يتساءل فريديريك معتوق لماذا لم تتعامل الهوية العربية مع التراث بما سماه " ابتعاد نظري"[17]؟ و في ما أرى فإن أزمة تعامل العرب مع التراث تعود إلى أن الهوية العربية لم تتمكن من التخلص من حالة الاضطراب منذ أفاقت على واقع التخلف و هذا الاضطراب المستمر هو سبب عدم انجاز مشروع التجاوز كما حصل في الغرب حيث وجدت " كتلة فواعل تاريخية كلية"(un bloc total d'acteurs historiques) غطت جميع مجالات الفعل التاريخي و قد تشكلت عبر مدة زمنية قد تبدو طويلة إذ انطلقت مع ما تعارف على تسميته بالنهضة (القرن 15) إلى الثورة الصناعية (القرن 19)، ولكن هذه المدة قد لا تعتبر طويلة في حياة الشعوب خاصة إذا رافقتها إنجازات تؤثثها. و استطاعت أثناءها كتلة العوامل التاريخية، كل في مجاله، أن تصفي مع الماضي بالتجاوز و الإلغاء كما وقع في التغيير الكبير الذي عرفته أوروبا، مع هيمنة الكنيسة، أو بإعادة الانتشار كما فعلت مع الدين أو بالتصعيد و فسح المجالات و ذلك ما وقع مع العلوم. و لكن هل يعني هذا أن الغرب تخلص من البعد الديني لثقافته؟

هذا ما بهر الكثير من أبناء الغرب و من الثقافات الأخرى. أما في واقع الأمر فإن ما حدث لا يتجاوز هيمنة ظاهرة التقدم العلمي و أيديولوجية العلمانية فظللت إنجازات الكتلة التاريخية الكلية السالفة الذكر على الجانب الديني الذي انكفأ إلى الوراء مع بخس قيمته الاجتماعية و جنح لمهادنة محيطه محافظا على علاقات في المجال الاجتماعي المتواري[18] و أحيانا في المجال الظاهر مثل الدور الذي لعبه بعض رجال الكنيسة في أمريكا اللاتنية عندما ساندوا التنظيمات الماركسية و هو ما أطلق عليه في السبعينات من القرن العشرين "الآباء الحمر".

ثم لو تخلص الغرب من المكون الديني لثقافته، و ما فيها من "حقد صليبي" لا زال يختزل هزيمة الحملة الصليبية على القدس التي هزم فيها أمام جيش صلاح الدين، لكان صادقا في تعامله مع الشعوب الأخرى و الشعب العربي منها

خاصة و هو أمر تنفيه كل ممارساته. إن كان الغرب صادقا في شعاراته فلماذا يسعى بكل جهده لتدمير كل محاولة لتطور هذا الشعب؟ فهو من ناحية لا يفتأ يحدثه عن الحداثة و أهميتها و لكن يحاصره في هذا المجال في حدود استهلاك فائض إنتاجه و كأن نصيب هذا الشعب من الحداثة حدد في استهلاك فائض إنتاج مستعمره. أوضح من ذلك كم حاضر الغرب، باختلاف مدارسه الفكرية، في جل العواصم العربية، عن مزايا الديمقراطية و نعم النظام السياسي المدني الديمقراطي و لكن فعليا هل ادخر جهدا في إفشال أي مشروع ينحو لبلورة نظام سياسي يتناغم مع الشارع العربي؟ و مع نهاية القرن العشرين و بداية القرن الواحد و العشرين نجد للعامل الديني دورا أساسيا في الإدارة الأمريكية مع بروز المسيحية الصهيونية التي تجسدت أساسا في توجه هيمن على إدارة القرار السياسي الأمريكي يعمل من أجل دعم لا مشروط للكيان الصهيوني و دفعه للتخريب الكلي للمجتمع الإسلامي و العربي خاصة. و لا أدل على ذلك مما وقع في العراق و ما يقع اليوم في باكستان من محاولة لتشديد الأزمة بين المجتمع المدني و السلطة.

أما في الحالة العربية فإن النهضة، كمشروع سياسيي، كانت ملغمة منذ انطلاقها في القرن التاسع عشر ميلادي. لقد انطلقت بمنظارين عرفا بالتوجه العلماني و التوجه السلفي. بهر الأول بمختلف مكوناته من ليبيراليين وماركسيين بما رأى في الغرب و بهر الثاني بالماضي. و مع مرور الأيام زاد كل منهما تطرفا و لم يتفطن، الاثنان، إلى كونهما خارج الواقع الاجتماعي. فأصحاب التوجه الأول ينظرون من خلال شوارع أوروبا غافلين عن العوارض الذاتية و طبائع العمران كخصائص اجتماعية و أصحاب التوجه الثاني يعيشون على وقع خطاب عمر ابن الخطاب غافلين عن قانون تبدل الأحوال. لهذا لم تنجح، في ثقافتنا العربية إلى الآن، الدولة الوطنية في بلورة الهوية الوطنية كانتماء للدولة الوطنية التي عجز ت عن إنجاز مشروع سياسي يهيمن على الوعي الجماعي فيشغله عن مشروع ألماضي و يدمجه في مشروع حداثة. لقد ظلت هناك قطيعة، في المجتمع العربي، بين مجالين " مجال النخب الحاكمة" و مجال المجتمع بمختلف مكوناته. لم يتمكن المجال الأول من إنتاج مشروع سياسي تلتف حوله جل مكونات المجال الثاني[19]. كما لم تحسم مسألة العلاقة بالماضي و لم يتمكن أي من التيارين من الهيمنة و فرض اختياراته ليجبر الآخر على الانطواء و لو إلى حين. قطعت التجربة البورقيبية في تونس شوطا في هذا الاتجاه لكن العقلية السياسية لم تكن بالنضج الكافي كما أن حملة المشروع سرعان ما ذهبت جهودهم لما دون المشروع كالتناحر حول خلافة "الزعيم" و على المناصب و المآثر ثم صار الزعيم هو المشروع فصار رئيسا مدى الحياة و ظلل على المشروع لأن المشروع المجتمعي يستدعي الحوار و إقناع الناس بأطروحاته لا إقناعهم بوجوب بقاء الزعيم مدى الحياة و هي السبب الرئيسي في انقسام النخبة السياسية إلى موالية همها ما تقطف و معارضة لو وصلت إلى السلطة لمارست ما تعيبه على ماسكي السلطة اليوم[20]. كما لم يتمكن الخط السلفي من العمل الهادئ من أجل انجاز برنامجه فبقي الماضي و التراث الفكري السياسي مقترنا ببعض ومضات مضيئة في سواد تاريخ

طويل من التسلط و القهر و استعباد الإنسان و إذلاله. و لو تأملنا الفترة التي نمر بها لوجدنا أنه عندما يتأزم الحاضر يكون الاستنجاد بالماضي أحد أبواب محاولة الخروج من الأزمة فينشط التراث و يحضر الماضي و يقع، في مرحلة أولى، الانشغال بالتاريخ بحثا عن أمجاد تظلل على واقع بخس ثم و هو الأهم تحويل ذلك المخزون التراثي إلى خزان طاقة للعمل على تثوير الحاضر و مغادرة وضعية الدون. أما عندما تكون الحالة العمرانية تسمح بذلك فلا يستنجد بالماضي. فعندما أحس الرئيس الفرنسي شارل دوغول أن سيادة بلاده صارت منقوصة بتواجد جنود الحلف الأطلسي المستمر و بالاستعمال المألوف لسمائها كما أنه لم يكن مطمئنا لسياسة الولايات المتحدة التي قد تجره بحكم القيادة المشتركة للحلف الأطلسي في حربها في الفيتنام و كان حريصا على أن لا يفقد الاستقلال التام في القرار الفرنسي فقرر أن لا يتواصل هذا الوضع. وكان هذا واضحا في الرسالة التي وجهها لنظيره الأمريكي ل. دجونسن[21]. هوية العزة الوطنية التي جعلت من دوغول قائد التحرير جعلته المحافظ على السيادة التامة لفرنسا. و الوقوف ضد الولايات المتحدة رغم أنها مع الدول الأوروبية التي شكلت الحلفاء في حرب(1939- 1945) ساعدت فرنسا على التحرر.

III/ 5/ مساحات فعل الرموز الثقافية:

تتدرج مساحه فاعلية الرموز الثقافية من المحيط العائلي إلى المجال الكوني العام فالمحيط العائلي مجال فاعلية رمز الوالدين و الأشقاء. و له عناصر تختلف فاعلية وقوة أيضا، فالاسم هو الرمز الأول الذي يسم الفرد في أسرته و يجعله يتعرف على ذاته مقابل الآخرين داخل ذلك المجال الضيق ثم يكتشف الرابط بين أفراد الأسرة و يحدد مكانه في تلك الشبكةأ حسب جنسه و هو السمة الثانية و تختلف أهمية الجنس من ثقافة إلى أخرى و ذلك حسب عدة عوامل اقتصادية و قيمية منها اكتساب المعاش و مجال الحياة ثم يبدأ الفرد تدريجيا و مع تقدم سنه يكتشف مكانه و مكانته بين الأخرين من ذلك ردود أفعالهم، تجاه سلوكاته، التي يكتشف من خلالها أنه مدلل مثلا، ثم في مجموعة اللعب في الحي أو القرية أو القبيلة وهو مجال يشتغل فيه الشعور بالانتماء لمجموعة معينة، و كذلك فيه عناصر مختلفة فاعلية وقوة، يبدأ الفرد في اكتشاف هويته بأكثر جدية إذ تصبح شبكة العلا قات أكثر أهمية و أدعى للجدية و تحمل المسؤولية و يكتشف أثناء لعبه مع اصدقائه مفهوم التحالفات و أن المعاملة لم تعد مع الأم التي يكتشف ردة فعلها العاتبة أو الشاكرة في تقاسيم وجهها قبل أن تنطق بها و إنما مع مجموعة يصله أذاها قبل أن تعبر عليه وتحمله في أحسن الأحوال المسؤولية في ندية مع الآخرين إن لم تكن في استنقاص و تسخير ويكتشف أهمية اسم الأب الذي يحمله كعنوان مكانة في الحي وهو ما يلاحظه في معاملة أنداده له. و تتعقد العلاقات أكثر و يبدأ في تحديد مكانه في تلك الشبكة و مكانته تلك أهم عنصر في هويته في المجموعة فهو زعيم أو عنصر مهم أو ثانوي أو عادي. و في الوطن لا يتولد الشعور بالانتماء إلا في مرحلة متقدمة نسبيا

مع نمو المقدرة على الاستيعاب و التدبر و بعد ذلك يُستوعب الانتماء لمجال أرحب و هو الكون من خلال الشعور بالقيم الإنسانية العامة.

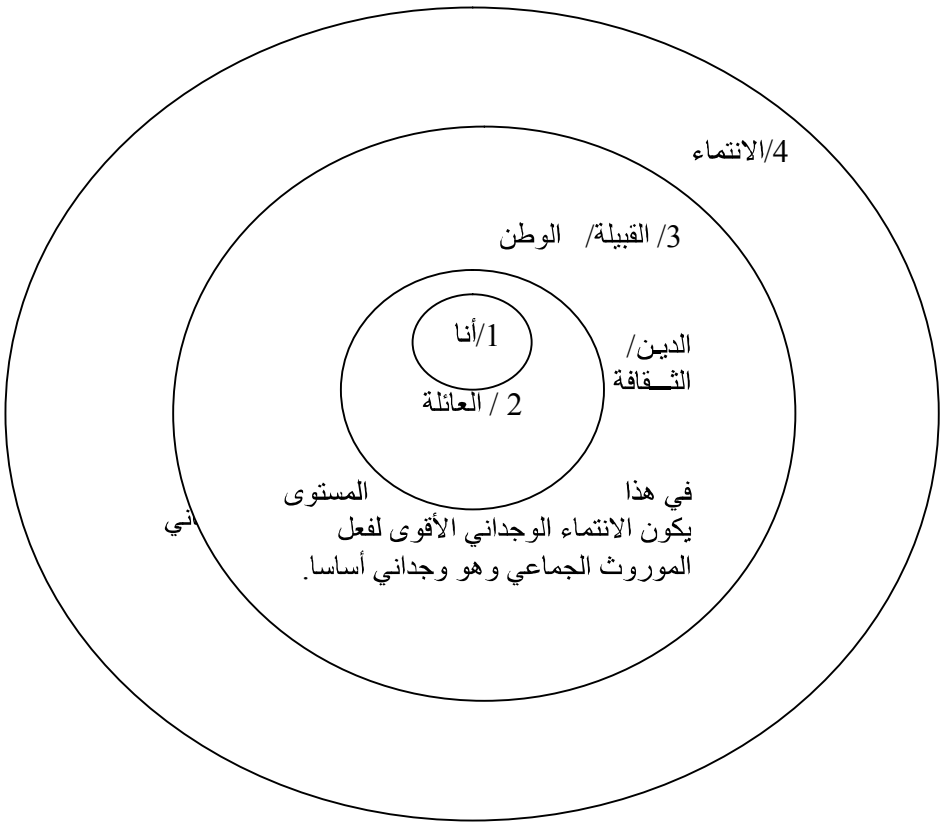

إلا أن فاعلية هذه الرموز تختلف في المساحة و المدى و القوة تبعا للأحوال:

- في المساحة تختلف فاعلية تلك الرموز في المستوى الأول يكون شعور الأنا بذاته في مقابل الأخر داخل الأسرة و هي مساحة ما يرضي فيها أكثر مما يدفع للغضب نظرا لما تقدمه الأسرة للفرد من خدمات. فبقدر ما تتسع المساحة يضعف الوجدان و يتفعل العقل وبالعكس كلما ضاقت المساحة يهيمن الذاتي. و من حقائق الإنسان أنه يندفع بالوجدان أكثر مما يندفع بالعقل.

- أما في المدى فتختلف فاعلية الرمز من فاعلية مستمرة إلى فاعلية ظرفية فوعي الإنسان بجنسه مستمر و وعيه بانتمائه العائلي و ما يوجب ذلك عليه هو أيضا مستمر أما وعيه بما يوجب ذلك عليه فإنه يتغير فيصبح

الموقف من الوالدين لا يتوقف عند حبهما و تقديرهما بل يتعدى إلى ضرورة إعالتها. كما أن وعيه بانتمائه لمجموعه اللعب فإنه مرهون باستمرار العلاقة بها. كما أن ألانتماء لتيار فكري يستمر باستمرار الاقتناع بأطروحاته، وهذا أيضا أمرتتدخل فيه عناصر عدة ليس هذا مجال التفصيل فيها.

- و بخصوص قوه توجيه الرموز للفرد فإن الأمر أكثر تعقيدا و وضوحا في نفس الوقت ففي المجال الأول تكون ردة فعل الطفل من موقف الأهل منه فإن كان مدللا فإنه يتمادى في تمرده و التعبير عن الرفض و الغضب و الثورة أما إن كان يتعرض التأنيب و التأديب لأول تهور يصدر عنه فإنه يكون خاضعا و في الحالتين يكتسب وعيا يوجه سلوكه و يكون هوية له فيذكر على أنه طفل مشاغب، متعِب، متمرد، مبدع أو على أنه طفل خاضع،مطيع،... فقوة الاندفاع في سلوكه يحددها وعيه بذاته في إطار العلاقة التي يعشها فإن كان في مجموعة أصدقائه زعيما يكون مندفعا آمرا ناهيا و إن كان عنصرا عاديا يكون تواصله مع المجموعة و استجابته لإيحاآتها على قدر ما يعرفه لنفسه فيها أي على قدر هويته فيها لأن فعل الإنسان الموجه من الهوية يكون واعيا، بل إن الإنسان لا يكون أبدا أكثر وعيا من حالة استجابته لهويته.

III/ 6- الهويات المنغلقة:

الهويات المنغلقة هي تلك التي تضم مجموعة أفراد و تسمهم بسيمات لا تكون بالضرورة مكتسبة من المجتمع. و تجعلها قوة انغلاقها متماسكة بل تصبغها التماثلية حتى تنصهر في صورة واحدة فتكون ردة الفعل إزاء جل ما يعرض في الحياة الاجتماعية واحدة كما يكون الموقف من الأحداث أو من الأشخاص موحد بين الأفراد فالاختلاف ممنوع. تمثل هذه التجمعات بناءا ذا طابع دقيق المؤسسات و منضبطا لمنهاج تربوي صارم يصهر الفرد تماما و نهائيا في المجموعة بل لا وجود له إلا بها و شدة التمسك من شدة الانصهار و يقوم التنظيم على درجة مرتفعة من الانضباط و الالتزام على أساس عقائدي. و على قدر خطورة و أهمية الدور الذي تطرحه على نفسها يشتد الالتزام و الانصهار و رفض أي اختلاف لذلك نرى أن هذه التنظيمات بمختلف أنواعها و بشتى أهدافها تحرس على تنظيم تربصات لمنخريطيها تعزلهم أثناءها عن أوساطهم العائلية و عن مختلف علاقاتهم الاجتماعية التي تربطهم بغير مجالها. وما ذلك إلا لتقوية مزيد انصهارهم في المجموعة و يقوى الحرص على هذا الجانب بقدر ما يكون الانصهار ضروريا و بقدر ما يكون نشاط المجموعة سريا بقدر ما يسعى المشرفون عليها على عزل منخرطيها عن المجال الاجتماعي العام بل يصل الأمر إلى خلق عداوة للمجتمع في نفس المنخرطين حتى لا يختلطوا به و لا يتأثروا بما لا يطرح و لذلك تسارع التنظيمات الدينية إلى تكفير الآخر حتى تضمن عدم اختلاط منخرطيها به فلا يؤثر في تكوين أفرادها و هو ما يجعلها تبني أسسهم الذهنية على ما تريد. و حتى يتحقق

التنميط و يصير المنتمون إليها مهما ارتفع عددهم نمطا واحدا فيصبح الأفراد قوالب جاهزة و أنماطا متماهية ينعدم الاختلاف بينها و سلوكات متكررة و تفكير متجانس و حيدة الوجهة لا تعمل هذه التنظيمات على تجميع منخرطين على التفاعل المتبادل حيث تنشأ علاقات الدمج و يتحقق لها هذا القدر من الانضباط دون أدوات قهر أو ضغط، ولكن الالتزام بالتعاليم تجعل الانضباط واجبا على العضو المنخرط. لذلك نجد هذه التنظيمات تعتمد التلقين على التعلم و النقلي عوض العقلي إلى درجة إلغاء العقل المكون ليصبح المنخرطون رهن إشارة المشرف فيقع تجنيدهم لأغراض التنظيم و تلك حالة تجعلهم ينفذون ما يؤمرون دون تردد و لا نقاش. و يقع بذلك إيجاد هوية ينصهر فيها الفرد مع شدة عداء للآخر فما إن يتلقى الفرد الأمر بإلحاق الأذى بالآخر حتى يندفع للتنفيذ بكل قواه و دون تفكير. و يكون الانتماء لهذه المجموعات "اختياريا" في ظاهره على الأقل ذلك أنه كثير ما يكون المنتمي ضحية خطة تحكم خيوطها من محترفين يستدرجونه شيئا فشيئا حتى يدخلونه في شبكتهم أما الخروج فإنه يصعب فرغم عدم امتلاكها أدوات عقاب مادي فإنها تتمتع بقدرة عالية من الإكراه على البقاء و الالتزام بما تملكه من أساليب إكراه معنوية كأن يقتنع المنخرط بأن الانتماء لتلك المجموعة هو أرقى ما يحقق وجوده. خاصة عندما ينجح التنظيم في نسج مجال اجتماعي خاص به هو عبارة عن شبكة اجتماعية خاصة بأعضائه تمكن الفرد من الشعور بالاطمئنان و الرضا خاصة و هذا ما يجعل الفرد لا يفكر في الخروج عن الجماعة. ثم إن هذه التنظيمات كثيرا ما تشحن الفرد بالتبرئ من المجتمع و اتهامه بالخنوع. و قد عرفت معظم الثقافات إفرازا لمثل هذه التنظيمات مثل الألوية الحمراء في إيطاليا و التكفير و الهجرة في مصر.

في كل هذه التنظيمات تلعب الهوية دورا أساسيا إذ هي الجامع الأول للمنخرطين و هي المحدد للآخر الذي لا ينتمي و هي خاصة المحدد للاختلاف معه و هذا المعطى رئيسي في تحديد الموقف من الآخر خاصة في الأزمات السياسية. فالأحوال الاجتماعية ليست، في كل الحالات، المحدد الوحيد لوعي الناس بوجودهم و إنما هذا الوعي يتكون من خلال تفاعل عناصر من البنية التحتية وأخرى من البنية الفوقية. و تهيمن أسباب اكتساب المعاش وتكون العنصر الرئيسي في البنية التحتية لأنها هي الأقرب لمشاغل الأفراد. لكن هذه الحالة ليست مطلقة إذ يحدث، في إطار التفاعل الجدلي بين البنيتين (التحتية و الفوقية)، أن يكون العنصر المهيمن من مكونات البنية الفوقية. خاصة تلك التي يتمحور/ ُيمحورُ حولها إجماع. وهو ما ينتظم له أفراد المجتمع من معايير جماعية يجعل بالتالي الأفراد متطابقين في ما بينهم. هذه المطابقة ناتجة عن الامتثال لنفس القيم ويتجسد ذلك في توافق أخلاقي وفكري و وجداني تشحنه القيم المتوارثة بما في ذلك الديني[22] و كل مكونات اللاشعور الجماعي و ما يتمكن من الوجدان الجماعي و يستبطنه المخيال الجماعي[23] من رموز تكون أساس ما يتوحد فيه المجتمع ويعي فيها ذاته كالاعتقادات و القيم الأخلاقية و نمط العيش الموحد و

الإحساس بالحياة في تساوق. يكون دور الشعارات والرموز الثقافية فيه إدامة التمثلات الجماعية كمؤمنة لوحدة المجموعة وللاتفاق الجماعي. طبعا قد تتغير درجة الاتفاق من مجتمع إلى آخر و لكن لا يوجد مجتمع دون اتفاق[24].

III/ 7 الهوية والزعامة:

طبعا هذا القول لا يعني أن الأمر آليا ذلك أن هذا التوظيف ينتج عن الحالة العمرانية و عن أهمية سمتها الأساسية كمعامل لتوظيف التراث في التمحور حول رموزها ففي المجتمع المستعمَر تكون المقاومة السمة الأساس لحالته العمرانية و لذلك تفعل كل رموز الهوية و تنشط خاصة الرموز الدافعة للتجيش ضد الآخر المعتدي. و شدة التمسك بتلك الرموز و حذق توظيفها تفعل دور الهوية و هذا منوط بمهارة القيادة فعندما يصبح القائد تجسيد المثل الأعلى و يخلق بالتفاف المجموعة حوله نوعا من "العدوى الذهنية" تجعل تكتلا صلبا يكون هو نواته الرئيسية و الأصلب. و يتحقق هذا بالتزامه برموز الهوية السالفة الذكر و بالمحافظة على تكتل أفراد المجموعة حوله و خاصة عدم المساس بالجانب الوجداني لهم. لقد تمكنت الأجهزة المختصة في الأنظمة الاستعمارية من دق إسفين بين قيادات حركات التحرر و شعوبها عندما استدرجتهم شيئا فشيئا إلى دوائرها و رسمت لهم صور المحاور الهادئ و المبتسم في وجه مغتصب بلاده و بذلك سحبت منه شرعيته لدى من اعصوصبوا حوله لا لشيء سوى أنهم يعتبرونه تخلى عن الهوية عندما صافح عدوهم و جلس إليه[25]. ثم إن هذه الجلسة تتكرر و توهم قوى الاستعمار ذلك الزعيم بالحصول على بعض المكاسب و تمكنه فعلا من بعض المكاسب دون أن تهتز أسس الوضعية الاستعمارية كحالة عمرانية[26] و إنما فقط تمهد للزعيم المحافظة على "مصداقية" و لو ضعيفة لدى مجموعته. وقوى تعلم انها، بذلك، تضعفه في الداخل حتى توصله إلى وضعية لا يضمن بقاءه إلا بقدر ما يصلح للاتفاق معها.

تنتج الورطة عن تقابل اتجاهين متضادين في شخص واحد فـ"الزعيم"، يواجه في الداخل قوما يعانون كل أنواع الاضطهاد الاستعماري و يواجهون قوى الاستعمار قصد التخلص منه و يصطف إلى جانبهم تجمعهم هوية المقاومة إلا أن اتصاله بالعدو على النحو الذي أشير إليه يقوده إما للتمسك بهويته كمقاوم و على قدر تمسكه هذا يحقق نجاحات و يحافظ على تماسك المجموعة، أو إلى الاعتقاد في جدوى حلول غير المقاومة فتنقص في حضوره الذهني مكانتها أو ربما يتخلى عنها و عندها يهتز رمزه كمقاوم، و يخسر بذلك هويته ومعها يخسر انتماءه و في بعض الأحيان ينتهي بالاحتماء بالمستعمر و يصبح عميلا. لأن العمالة لا تولد مع أي إنسان و إنما هي نتيجة عدة عوامل و حوادث أولها ضعف الهوية و أخرها التنكر لها. هنا نتفطن لناحيتين في الهوية الأولى جماعية أو تكون في الزعيم نوعا من انعكاس الجماعة/

المجتمع / الثقافة/ الشعب الذي ينتمي له و الناحية الثانية هي الشخصية البحتة و كلا الناحيتين الجماعية و الشخصية تكونا متناسبتين طالما لا يتطور الصراع بينهما لكن عندما تختلفان يحتد الصراع بينهما.و لتجسيد هذه الأطروحة نأخذ على سبيل المثال، شخصية الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات (4 أوت 1929،القدس/ 11 نوفمبر 2004، بمستشفى، بباريس) و نلاحظ ماذا حقق في أقل من عشرية منذ دخول فتح [اختصار معكوس لحركة التحرير الوطني الفلسطيني] العمل المقاوم في 1965 إلى حدود سنة 1974 من القرن الماضي عندما ألقى كلمة باسم الشعب الفلسطيني أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك. ففي هذه العشرية اشتد عود المقاومة الفلسطينية و تنافس مختلف أطيافها في مقاومة الاستعمار و حدث تمحور حول هوية المقاومة و نجحت في إيلام العدو و إحراجه على كل المستويات. لكن في تلك الكلمة طالب الزعيم أبو عمار الحضور، و هو يعلم علم اليقين من هم وماذا فعلوا بشعبه، أن لا يجعلوه يلقي غصن الزيتون. " لقد جئتكم، يا سيادة الرئيس، بغصن الزيتون مع بندقية الثائر، فلا تسقطوا الغصن الأخضر من يدي." فكان له ما طلب و فتحت كل العواصم الغربية أبوابها أمامه للتفاوض و جندت أعوانها للتوسط بينه و بين الكيان الصهيوني. و مقابل ذلك ضغط عليه لإخماد صوت البندقية. و انجر عن هذا اختلاف الذي انتهى إلى التقاتل الفلسطيني / الفلسطيني و ما ذلك إلا للاختلاف حول هوية المقاوم و ضعفها إلى أن صارت توظف من طرف أعدائها. فعرف ياسر عرفات نفسه بغصن الزيتون كعلامة سلم و واصل "الزعيم" رفع راية "الغصن الأخضر" و أسقط بندقية المقاومة التي بدأ صوتها يخفت في وجه العدو ففقد هويته و تحول الصراع من أجل الإبقاء على هوية المقاومة إلى اقتتال فلسطيني فلسطيني و بهت دور منظمة التحرير الفلسطينية و تحول الرمز من مقاوم إلى مساوم بدأت بضاعته تبخس من مدريد إلى أوسلو فواشنطن حيث اتضحت ورطة الزعيم عندما طلب منه الرئيس الأمريكي (بيل كلينتون)التنكر لمبدأ العودة [عودة المهجرين في الشتات] و التخلي عن المطالبة بالقدس [حتى في جانها الغربي] عاصمة لدولة فلسطينية يحلم بها في فراش المفاوضات. و هنا تعطلت العملية و تأكد مما كان يخشاه و يهرب منه و لكنه كان هروبا للأمام فهو يعلم أنه لا يقدر على العودة لما قبل خطاب 1974 لقد كانت ورطته كبرى،فناسجوها[المخابرات الاستعمارية[27] يتحكمون في أكثر من مستوى. خلت حوله الساحة من الرفاق فالبعض تخلى عنه عند تخليه عن هوية المقاومة و البعض الآخر فضل طريق المقاومة محافظة على الهوية فقتل من قتل و تفرقت السبل بالآخرين. و فريق آخر انخرط في المسار معه لكنه لا يعاني من صراع بين مكوني الهوية المشار إليهما سابقا فتصرف مقتنعا بذلك المسار و مصرا على مواصلته[28].

ربما حاول ياسر عرفات الرجوع للطور السابق و لكن ذلك لم يعد في مقدوره لأنه تخلى عن هوية المرحلة و لأنه لم يقطع مع وجوده كزعيم لم يستطع أن يتحول إلى عميل تماما فأصبح بلا هوية. فانتهى سجينا في المقاطعة برام الله. أما

الشعب الفلسطيني فلئن لم يعلن موقفه السلبي صراحة من الزعيم ياسر عرفات و راعى فيه أنه لم يتحول إلى العمالة فإنه أدار له ظهره و انتخب المقاومة الإسلامية التي رأى فيها أكثر التزاما بهويته كشعب مقاوم.

IV/1- أ- العنف هوية:

هناك كيانات دأبت على توظيف المقدرة على الإكراه باستعمال العنف حتى صار ذلك لها طبعا و استنبطت له مختلف المبررات فهو من عوارضها الذاتية و يتجسد هذا خاصة في سلوك قوى الاستعمار.

و الاستعمار حالة عمرانية تمحور فيها الفاعل (أو الفاعلون) التاريخي حول ذاته في حدودها الضيقة {أوربا الغربية} ونفي الآخر كهوية و قد درس هذه المسألة عديد المفكرين مثل فرانتز فانون الذي تفطن لأن المشروع الاستعماري عمل على سلب المستعمَر هويته و بذلك وجد نوع من الشخصية الهجينة عبر عنها بـ" جلد أسود و أقنعة بيضاء". و مما يدلل على العلاقة بين الاستعمار و الهوية ترتيب الثقافات المعبر عن القناعة بدونية هوية عن أخرى و علوية أجناس عن أخرى. و قد عبر عن هذه القناعة كثير من رجال السياسة و الفكر في الغرب أمثال جيل فيري الذي دافع عن الاستعمار في البرلمان قائلا :" سادتي يجب التكلم أكثر علوا و أكثر صدقا ! يجب القول بصراحة أنه فعلا، الأجناس العليا لها واجب إزاء الأجناس السفلى [تململ في اليسار] أعيد أن هناك للأجناس العليا واجب، لأنه هناك واجب لها، عليها واجب تمدين الأجناس السفلى"[29] و تجسيدا لهذا الخطاب نصب في مدخل مدينة تونس، تقريبا حيث توجد ساعة 7 نوفمبر اليوم، تمثال رجل يرنو إلى الأمام في استعلاء و تجثو تحت قدميه امرأة تلبس اللباس التونسي التقليدي مقدمة له ثمار البلاد و إلى جانبه طفل أنيق باللباس الإفرنجي و أمامه طفل تونسي رث الهندام يطلب من الطفل الفرنسي أن يعلمه و بينهما كتاب. و في نفس هذا السياق يقدم أميلكار ألونكاستر في كتابه "الفتح " الذي خصصه للفدائيين الفلسطينيين صورة يقول أنه رأى في مجلة موالية للكيان الصهيوني صورة فتاة صهيونية ترتدي لباس الشرطة و هي تشير إلى طريق امرأة عربية رثة الهندام و قد كتب تحت الصورة " عالمان يفصلان بينهما" ثم " مسافة كبرى بين عالمين " و يعلق أميلكار ألونكاستر:" كان الأصوب أن يكتب الحالة التي بخست إليها المرأة العربية بعد أن انتزعت منها المرأة القادمة من أوروبا أرضها و بيتها"[30]

IV/1- ب- العنف سمة حالة عمرانية :

هذا التوجه و ما انجر عنه أدى، في المجتمعات التي هيمنت عليها قوى الاستعلاء، إلى تزييف علامات التعريف و أفقد الإنسان توازنه الثقافي حتى إخراج الهوية كفاعل تاريخي عن مجال الفعل التاريخي بخلق " واقع تغريب" : تغريب الإنسان عن هويته / المواطن عن وطنه/ و فرض واقع التبعية و هو ما يفضي إلى تعطيل الهوية كفاعل و بذلك يتم

القضاء على صبغ الوجود. لأن المساس بصبغ الهوية يفعل في الخلق الثقافي للفرد أي في تكوين شخصيته ما يفعله المساس بالصبغيات الجينية في الحقل البيولوجي فكما يوجد في هذه الحالة كائنا مشوها أو غير سوي بيولوجيا يوجد في المجال الثقافي كائنا مشوه الشخصية. و في الحالة الأولى لا يتمكن من العيش السليم لعدم توافق تركيبته الجسمية مع المحيط و ما يتطلبه من مهارات جسدية لا تستجيب لها أعضاؤه و في الحالة الثانية لا تستجيب مقومات شخصيته لما يتطلبه محيطه المحلي أو الإقليمي أو الدولي. فإن كان، مثلا، الإحساس بالوطن كانتماء ثقافي ضعيف، عند فرد ما، فهل يصلح للدفاع عن مصالحه؟

إلا أن تحقق هذه الحالة العمرانية الموسومة بانعدام الصبغ الذاتي و إنهاء الهوية كضامن لوجود متميز يعرف فيه الفرد كما المجموعة الهوية الفردية كما الجماعية في مقابل الآخر لا تتحقق دائما. لأن قوى الاستكبار عندما تتمكن من الشعوب التي تستضعفها و تجعلها في واقع المهيمن عليه لا تملك القدرة على أبدية تلك الحالة لأنها و هي تفرض ذلك الواقع لا تستطيع إلغاء فكرة مقاومته من وجدان المهيمن عليهم. فالواقع الذي تفرضه بوسائل القهر المتنوعة المتاحة لها لا تلغي هذا السؤال: " هل الواقع أمر انتُهيَ منه و لا بد من القبول به و الانضباط في حدود ما يفرضه أم يُعملُ على تغييره؟" و يقر علم الاجتماع أن التغير الاجتماعي قاعدة اجتماعية لا جدال فيها و لها كوجيطو خاص بها فليس التغيير علامة و جود و إنما الوجود الاجتماعي دليل تغير. المجتمع موجود المجتمع يتغير.

و التغيير الاجتماعي يتم حسب تفاعل عناصر ثلاثة و هي الأعوان و العوامل و الأحوال[31]. أما الأعوان فتقسم قسمين: الأعوان الساعية للتغيير و الأعوان المضادة له و يستفيد الفريقان من مدى قدرتهما على توظيف العوامل و الاستفادة من الأحوال.

الاستعمار حالة عمرانية تستبطن نهايتها فهي في عوارضها الذاتية (الاستكبار أساسا) تدعو المهيمن عليه للخنوع و الاستكانة و إلغاء هويته، هذا ما تريده له، لكن ما يقع يكون في أغلب الأحيان عكس ذلك فوضعه ذاك يدعوه للثورة و هذا ما يولد ردة الفعل العنيفة لأن المدفوع للدون و المراد إذلاله أو إلغاءه لا يبقى أمامه سوى الدفاع عن نفسه و بكل الوسائل.

لا وجود لمجتمع يقبل وضعية الدونية و إن تختلف، بين المجتمعات أو بين قوى المجتمع الواحد، قوة الاندفاع في ردة الفعل ضد هيمنة الاستكبار. سأل أحد الإعلاميين حمد بن جاسم، رئيس الوزراء و وزير خارجية قطر، إن كانت الولايات المتحدة الأمريكية ضغطت عليهم فأجاب " أمريكا قد تضغط على فرنسا أو روسيا أما نحن فهي تأمر و نحن نطيع" هذا القول إقرار بواقع رضوخ لقوة الاستكبار لكنه لا يعني إقرار بقبول هذا الواقع فلا أحد يجزم بأن صاحب هذا القول لا يتطلع للحظة تحرر و لو بمقدار من هذه الحالة. و نجد نفس هذا الدبلوماسي يتحدث في مجلس الأمن عند تدارس

إعلان وقف حرب جويلية 2006 التي شنها الكيان الصهيوني على لبنان فيقول عن قوى المقاومة " هذه تنظيمات تعتبرنا حكومات ضعيفة لم تحقق لها شيئا فأرادت أن تعول على نفسها " و نجد هنا اعتراف ضمني بحق هذه القوى في التحرك. و نجد عند السيد عبد الوهاب عبد الله وزير الخارجية التونسي موقفا مشابها عبر عنه في الاجتماع الذي عقده التجمع الدستوري، الحزب الحاكم في تونس، بعد الأحداث التي عرفتها الضاحية الجنوبية للعاصمة التونسية و التي عرفت بـ"أحداث سليمان" حيث قال أن من أسباب بروز هذه التنظيمات المتبنية للعنف الكيل بمكيالين في المنتظم الدولي. و هذا قول فيه تبرير منطلق تلك الأحداث و إن كان الدبلوماسي المذكور هنا يرفض تماما تلك التنظيمات و ما تقوم به.

و قد بدأ في السنوات الأخيرة ينتشر الحديث عن العنف كممارسة تسعى للدفاع عن الهوية/ الذات في كثير من المجتمعات. و هي ظاهرة تاريخية لم تغب من مجال التاريخ البشري و إنما تعرف فترات انطواء وفترات نشاط و بما أنها تكون دائما ردة فعل فإن نشاطها وضعفها يتبعان فعل منبهها وهو غطرسة قوى الاستكبار. و في المجتمع العربي انتشرت هذه الحالة خاصة في الشرق العربي و ما ذلك إلا لاشتداد بطش الممارسات الاستعمارية و وضوح ظلمها و هو ما ينمي الشعور بالغبن و لا يجد الساعي للدفاع عن الهوية/ الذات سوى العنف ممارسة يسعى من خلالها إثبات وجوده كمقاوم يرفض القبول بمرتبة الدون و وضعية المهانة.

و بالعودة لما قاله رئيس الوزراء القطري نجد من أسباب، هذه الظاهرة وهي متعددة، رفض الشعور بالدونية التي يريد الغرب فرضها و يأس من قدرة الأنظمة عموما على تغيير الواقع نحو الأحسن خاصة في مسألة الخروج من وضعية الهيمن عليه، و تنامي الاقتناع بفشل المشروع التحديثي و بالتحديد في ما يتعلق بالاستقلال الوطني و هو ما توضحه بكل تجلي الحالة الفلسطينية و هو فشل يحسب على النظام الرسمي العربي. مع ما يشاهد من عربدة قوى الاستعمار و تعمد إذلال المجال الوجودي العربي بمختلف مكوناته حكاما و محكومين : و أي احتقار أكبر من قول الرئيس الأمريكي عن شارون الذي عرف بجرائمه في فلسطين و لبنان أنه رجل السلم الوحيد في العالم ، الساسة العرب واعون بهذا. (راجع تصريح وزيري خارجية تونس و قطر المشار إليهما أنفا.)

IIV / خاتمة:

أي علاقة بين العنف و الهوية ؟

طبعا قد تمحور التحليل حول العنف الجماعي و المنظم و نقسم هذه الكيانات الاجتماعية و السياسية التي تمارسه إلى قسمين: الأول مستبطن للعنف فهو من عوارضه الذاتية و الثاني ينتهج العنف دفاعا عن وجوده ضد العنف الذي يتعرض له من الأول.

و في الحالتين يلعب الوعي دورا حاسما فوعي المستكبر بمقدرته على التغلب على الآخر و تسخيره أو إلغائه نهائيا هو الذي يدفعه لفعله و يوجه أداءه و بالمقابل يتحرك المستضعف مدفوعا بوعيه بحالته التي لا يستقيم وجوده معها و لا يخرجه منها سوى مدافعته مستضعِفَهُ.

و في أغلب الحالات تتحول المواجهة إلى قضية وجود فإما يقضي الطرف الأول على الثاني و إما يفل هذا الأخير في عنف جلاده فيذهب حدته و يتخلص من غطرسته.

فالعنف هوية الاستعلاء على الآخر، الاستعمار و الامبريالية و كل ممارسة تسعى لاستضعاف الشعوب و إخضاعها بقصد تسخيرها أو بخس حقها في الوجود. لا وجود لثقافة شعب تشرع العنف. و ليس السائد في الظاهر من "الثقافة الأمريكية" تعبيرا عن ثقافة شعب[32] فالولايات المتحدة خليط من الأجناس و الأعراق و الثقافات يربط بينها، اجتماعيا، مصلحة العيش المشترك[33] و ظاهر العنف فيها يجد تفسيره في القراءة الانتروبولوجية لأصل تأسيس سلطة على العنف الذي قضى على محاولة المقاومة التي أبداها الهنود، أصيلو المنطقة عند هجوم الأوروبيين و الذين تشهد بعض الوثائق التاريخية و الأدبية[34] على أنهم كانوا في جزء منهم مجرمين حكم عليهم القضاء بالنفي في " العالم الجديد" و كانت تلك تسمية أمريكا في بداية اكتشافها، أو هم باحثون عن المغامرة للاستثراء كما يشهد على ذلك الكثير من إنتاجهم السينمائي. لذلك لا غرابة أن يستبطن الوعي السياسي الأمريكي العنف لأنه تأسس عليه و بادر أول مهماته به و داوم عليه حتى صار له عقدة /هوية(....)

أما ما عبر عنه صامويل هنتنغتون، بعد تفكك الاتحاد السوفياتي و نهاية الحرب الباردة، في كتابه «صراع الحضارات»، من أن نهاية الحرب بين المعسكرين الغربي الرأسمالي والشرقي الشيوعي هو إعلان عن بداية حرب بين الحضارات[35]. معتبرا الثقافة أساس الصراع في المستقبل فلا يتعدى أن يكون دليلا على صدق ما قدمت لأن الولايات المتحدة، و من انصهر في منظومتها، مسكونة بالعنف الذي بنيت عليه و بالتالي هي لا تستطيع أن تكف عن ممارسته و لذلك كان لا بد لها بعد انحلال الاتحاد السوفياتي الذي تصدر عداوتها أن تبحث عن عدو آخر تمارس عليه عقدتها و

بما أن صامويل هنتنغتون كان منظر الخارجية الأمريكية فقد أوجد لها مخرجا في نظريته التي تعتبر أن تعدد الأقطاب في السياسة العالمية من تعدد الثقافات وأن الصراع تحول من صراع الأيديولوجيات إلى صراع ثقافات و أن استعمال القوة صار معتمدا على الثقافات أكثر من الأيديولوجيات. و اعتبر هنتنغتون أن النزاع يفهم بفهم الخلافات الثقافية و ذهب إلى حد اعتبار أن الثقافة تحل بديلا عن الدولة الوطنية. و هذا رأي فيه واقعية إلا أن تأصيله في الفهم الاستعلائي فيه تعسف على الفكرة و توظيف لها لا يرقى للموضوعية التاريخية و العلمية. إننا نلاحظ، فعلا، اليوم في المجتمع المسلم عموما توحدا يتجاوز الأقطار ليصطف خلف أي بريق مقاومة يقف في وجه قوى الهيمنة و ما ذلك إلا نتيجة هيمنة الاستعمار الذي تعمد إهانة المسلمين ساسة و مسوسين. و هو أول أسباب العنف الذي بدأ يتفشى في المجتمع الإسلامي، عموما، و الذي هو، في حد ذاته، رفض لواقع الدونية التي يريد الغرب فرضها. تتفق جل التحاليل على أن هذا العنف لن يولد إلا مزيدا من الدمار للجميع و لن يقدم أي خدمة إيجابية للمسلمين اللهم إلا التشفي الوجداني كلما عرضت الشاشات صور بعض ضحايا من الغربيين و الذين ربما يكون منهم من لا يكن إلا كل احترام و تقدير للمسلمين و حضارتهم لأن العنف أعمى فهو يضرب ضمن من يضرب أصدقاءه. و لكن التحليل العلمي يبين لماذا يتبنى هذا الشباب هذه الممارسات؟ و السبب الأول توحش قوى الاستعمار و عربدتها و تعمد إذلال المجال الوجودي العربي الإسلامي بمختلف مكوناته حكاما و محكومين و لا أدل على ذلك من قول الرئيس بوش الابن بعد أحداث 09/11 الشهيرة و التي يعلم كل المهتمين أنها من صنع المخابرات الأمريكية،" سنعلنها عليهم (يقصد المسلمين) حربا صليبية"[36] يضاف إلى ذلك فشل المشروع التحديثي و فشل تحقيق الاستقلال الوطني و هو ما توضحه بكل تجلي الحالة الفلسطينية و هو فشل يحسب على النظام الرسمي العربي و كذلك اليأس من النخب فلقد تأكد لدى هذا الشباب أن الوعي الذي يبقى حبيس القرطاس فاقد للفاعلية. فالنخب الفكرية واعية بظلم قوى الهيمنة و تتحدث عن ظلم المنتظم الدولي و خاصة وزنه بمكيالين منذ الخمسينات من القرن الماضي[37] كما كانت النخب على يقين من أن قوى الاستكبار و أعوانها تسعى لاستعباد هذا الشعب و أوضح من عبر على ذلك تقي الدين الصلح في قوله :" نبقى في نظر اسرائيل الشعب الذي يجب أن يدخل في ظلال تبعيتها، و الأرض التي تطمع في اقتطاع مساحة منها، و الدولة التي يجب أن تدور في فلكها، و تقع تحت نفوذها، و تستأذنها في القهوة التي تشربها أو السيكارة التي تدخنها"[38]

و هنا تطرح مسألة مهمة تتعلق بالوعي بالأحوال. فهل الوعي بالحالة العمرانية يعني الخنوع لها و الرضا بما تعكسه سواء كان سلبيا أم إيجابيا أم أن ذلك الوعي يعني تدبر الحالة قصد المحافظة على إيجابياتها و تجاوز سلبياتها؟ و يطرح سؤال آخر عن هذا الوعي في حد ذاته فهل غير هذا الوعي لدى النخب على قدمه شيئا؟ الجواب على هذين السؤالين و مهادنة النظام الرسمي العربي لوضعية يتفاقم سوءها يوما بعد يوم مع إصرار قوى الاستكبار على

الإمعان في إذلال المنطقة هو مولد الإرهاب و ما الهوية إلا معامل له. في إطار الوعي بالذات و مصاحبة التراث كداعم للتمكن من الانجاز و توظيف الأمجاد كمعامل لقدرات الذات و دافع للعطاء قاعدة علم اجتماعية تتحقق في كل المجتمعات فالقهر المسلط على الشعوب و الاستعلاء الذي تمارسه قوى الهيمنة هو الذي ينشط ذاك المخزون التراثي.

فالعنف ليس هوية لشعب دون آخر ولا سمة ثقافة معينة إنما هو هوية الاستعلاء و الاستكبار و سمة الاستعمار و الامبريالية أما ما تمارسه قوى المقاومة فهو ما ينجر عن هذا من ردة فعل للشعوب المقهورة و ما هو إلا سمة حالة عمرانية تنتهي بتبدل الحال.

الاحالات و الهوامش :

1 - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، 1994، بيروت، ج:9، ص:257.

2 - تشكل التحالف المعني بالوقاية من العنف رسمياً في جانفي 2004 أثناء اجتماع معالم الحملة العالمية للوقاية من العنف، الذي استضافته منظمة الصحة العالمية.

3 - التقرير الخاص بالصحة والعنف في العالم :الصادر عن المنظمة العالمية للصحة في أكتوبر سنة 2002

4 - عندما نتحدث عن العنف" أيا كانت بواعثه أو أغراضه" فهل نرفض حق المظلوم في الدفاع عن نفسه و حق الشعوب المستعمرة في مقاومة قوى الاستعمار أم هل نسوي بين فعلي الظالم و المظلوم

5 - أطلقت المنظمة العالمية للصحة الحملة العالمية للوقاية من العنف عقب إصدار التقرير الخاص بالصحة والعنف في العالم في أكتوبر 2002. وتهدف هذه الحملة إلى إذكاء الوعي بمشكلة العنف.

• فراج فتلوب (Gottlob Frege) أستاذ رياضيات ألماني و يعتبر مؤسس المنطق الرياضي.

6 - Nicole SINDZINGRE, identité, Encyclopédia Universalis

7 - الجرجاني (السيد الشريف علي بن محمد) : التعريفات، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1938. ص:190

8 - انظر مقال " صناعة الهوية" لهيثم مناع ناشط حقوقي عربي مقيم بباريس.مقال منشور على الانترنت: http://www.achr.nu/art59.htm

9 - طبيب وأستاذ في الطب النفسي وعلم النفس السياسي والشؤون الدولية، ومدير برنامج علم النفس السياسي بجامعة جورج واشنطن بمدينة واشنطن العاصمة

10 - تثاقفا وذلك عندما يقع اتصال بين ثقافتين أو أكثر وتؤثر كل واحدة في الأخرى و تتأثر بها. وهي عملية الاتصال بين حضارات الشعوب التي عرفتها الإنسانية عبر التاريخ. و انثقافا عندما يكون الاتصال من باب الهيمنة فتهيمن ثقافة على أخرى فتشوهها أو تقضي عليها نهائيا.

11 - فسر هذا هيرسكوفيتس عند حديثه عن ثلاث متناقضات للثقافة وذلك في كتابه أسس الانتروبولوجيا الثقافية.

12 - l'habitus est le produit du travail d'inculcation et d'appropriation nécessaire pour que ces produits de l'histoire collective que sont les structures objectives (e. g. de la langue, de l'économie, etc.) parviennent à se reproduire, sous la forme de dispositions durables, dans tous les organismes (que l'on peut, si l'on veut, appeler individus) durablement soumis aux mêmes conditionnements, donc placés dans les mêmes conditions matérielles d'existences. » Pierre Bourdieu, Esquisse d'une théorie de la pratique, Éditions Droz, 1972 p. 282

13 - عبد الرحمان ابن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1978، ص: 58

14 - محمد عابد الجابري، العقل السياسي العربي، ،المركز الثقافي العربي، 1991 ص:10.

15 - هو لفظ يعود للسنسكريتية (لغة البراهمة) و يعني الممتاز، المحترم، و الشريف. انظر:

Raoul VANEIGEM, Aryen, Encyclopédia Universalis

16 - حلل هذا المثال أكثر في "من أجل مدرسة علم اجتماعية خلدونية"، المولدي اليوسفي، الحياة الثقافية عدد خاص: ابن خلدون،173، ماي 2006

17 - فريديريك معتوق، سوسيولوجيا التراث، دار الحداثة، بيروت،2006،. ص:9

18 - وهو مجال العوامل الاجتماعية المؤثرة في بعض الدوائر المهمة دون أن تكون لها حضور بارز، من ذلك ما يذكر عن دور البابا في سقوط الاتحاد السوفياتي و قيل ذلك في وصول لاش فليزا الزعيم النقابي لسدة الحكم في بولونيا..

19 - تعرضت لهذه المسألة بأكثر تفصيل في نص بعنوان " La torsion : Etat/ Société en Algérie"قدم في ندوة دولية نظمتها جامعة صفاقس، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، خول "راهنية ابن خلدون" أيام 15،16،17 نوفمبر 2006، و نشر ضمن أعمال الندوة كما نشر بالمجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والاجتماعية.

20 - انظر المولدي اليوسفي، السلطة من طبائع العمران، العلوم الاجتماعية، مجلة دورية متخصصة تصدر عن مركز الأبحاث في معهد العلوم الاجتماعية في الجامعة اللبنانية، عدد أوت 2008.

21 - Aboutissement d'un long processus de réflexion depuis son retour au pouvoir, la décision que prend le Général de Gaulle, le 07 Mars 1966, de retirer la France de la structure militaire intégrée de l'OTAN fait l'effet d'une bombe aux Etats-Unis. Dans la courte lettre qu'il adresse, en effet, à son homologue Lyndon Johnson, il affirme sa volonté de voir la France être maître de son destin et assumer, seule, l'emploi de sa propre dissuasion. Les termes sont clairs : (...) La France se propose de recouvrer sur son territoire l'entier exercice de sa souveraineté, actuellement entamé par la présence permanente d'éléments militaires alliés ou par l'utilisation habituelle qui est faite de son ciel, de cesser sa participation aux commandements « intégrés » et de ne plus mettre de forces à la disposition de l'OTAN. www.blogg.org/blog

22 - يبلغ مداه في جانبه الديني ذلك لأن الديني من سماته التمادي إلى مجمل المجالات الاجتماعية فوظيفة الدين الاجتماعية تجعله فوق التدبر وفي مناعة من العقل هذه صبغة الدين الاجتماعية حتى و إن كانت مرجعيته تدعو للتدبر و استعمال العقل مثل القرآن.

23 - تقصد بلفظ"المخيال " الملكة التي تختزل الصورة بمفهوميها المادي كصورة الأب أو الحبيب و المعنوي كدلالة الألفاظ أو الأشياء. و الأساطير و الخرافات.

24 - André Akoun, Consensus, Encyclopédia Universalis : « Certes, le degré de consensus peut varier d'une société à une autre, mais il ne saurait y avoir de société sans consensus. »

25 - سأل أحد الصحافيين الإمام الخميني ، زعيم الثورة الإيرانية لماذا لا يجلس للشاه حاكم إيران آن ذاك فأجاب أنه يعلم أن الشعب الإيراني يعتقد أن البحر لا يكفي ليطهر من يصافح الشاه.

26 - الحالة العمرانية فيها جانبان:

أ- الأحوال العمرانيه : الجانب المادي في الحياة الاجتماعية التي عليها المجتمع وهى نتاج طبيعته المتسمة بالتغيير المتواصل و الناتج عن تفاعل عوامله الداخلية و تمازج الموروث بالمستحدث و تمفصل كل ذلك بالمحيط الكوني في بعدي الزمان والمكان.

ب- القيم العمرانية : و هي الجانب المجرد من طبائع العمران و إن كلن لا ينقطع عن الأول حتى أن ابن خلدون ربط بين التمدن و العلوم و الصنائع و الأديان السماوية من ناحية و أحوال المجال الطبيعي من ناحية أخرى

27 - المخابرات الأمريكية و كل من دار في فلكها.

28 – فريق أبو مازن (محمود عباس) / محمد دحلان.

29 - « Il y a un second point, un second ordre d'idées que je dois également aborder (...) : c'est le côté humanitaire et civilisateur de la question. (...) Messieurs, il faut parler plus haut et plus vrai ! Il faut dire ouvertement qu'en effet, les races supérieures ont un droit vis-à-vis des races inférieures... [Rumeurs sur plusieurs bancs à l'extrême gauche.] Je répète qu'il y a pour les races supérieures un droit, parce qu'il y a un devoir pour elles. Elles ont le devoir de civiliser les races inférieures » **Jules Ferry, un article de Wikipédia, l'encyclopédie libre**

30 - A. ALENCASTRE, el fatah, les COMMANDOS ARABES EN PALESTINE., S N E D, Alger1970

31 – راجع بهذا الخصوص كتاب Guy Rocher ; le changement social, Points, Paris,1968

32 – و هنا تطرح مشكلة أخرى لا أرى الآن مجال طرحها وهي هل هناك شعب أمريكي له ثقافة أمركية؟ لقد عبر أكثر من مفكر من منظري جهاز السلطة الأمريكية على تخوفهم من المسالة الثقافية للشعب الأمريكي من ذلك ما طرحه صموئيل هنتنغتون في كتابه :من نحن؟ تحديات الهوية الوطنية الأميركية و هوكتاب يقع في 428 صفحة ظهرت طبعته الأولى سنة2004 عن دار سيمون آند سيشتر للنشربالولايات المتحدة

33 – يرفض هنتنغتون في كتابه :"من نحن؟ تحديات الهوية الوطنية الأميركية"(صموئيل ب.هنتنغتون، من نحن؟ ترجمة، تحقيق: حسام الدين خضور :دار الرأي للنشر، دمشق،2005) هذه الفكرة و يعتبر الشعب الأمريكي الذي ناضل من أجل الاستقلال مجموعة متجانسة من المستوطنين البريطانيين البروتستانت الذين توافدوا إلى العالم الجديد من أوروبا وخاصة بريطانيا لكي يستقروا فيه ويعمروه للأبد. (هكذا و أين السكان الأصليون شعبا و ثقافة)

34 – انظر، على سبيل المثال رواية : Manon Lescaut, للكاتب Antoine François Prévost

ABBÉ PRÉVOST, Manon Lescaut, F. Deloffre et R. Picard éd., Bordas-Classiques Garnier, Paris, 1965, rééd. 1990 ; J. Sgard éd., coll. GF ; no 833, Flammarion, 1995.

35 – ثمان حضارات: ثلاث مسيحية: بروتستانتية و كاثوليكية ، وأرثوذكسية وهندوسية، وبوذية وتاوية ، وافريقية وإسلامية. "(صموئيل ب.هنتنغتون، من نحن؟ ترجمة، تحقيق: حسام الدين خضور :دار الرأي للنشر، دمشق،2005)

36 – محطة الجزيرة بقطر هي أكثر من دافع عن هذا القول معتبرتا إياه مجرد زلة لسان و ذلك عن طريق الاعلامي سامي حداد مقدم برنامج "أكثر من رأي".

37 – انظر مجموعة مقالاته التي جمعها في كتاب عنوانه : "في معترك القومية و الحرية" الصادر عن دار الآداب، بيروت1977.

38 – تقي الدين الصلح، في السياسة و الحكم، 1972، دار العودة بيروت، لبنان.